الجرح النازف

مفتتح :

" الوطن مرسوم في كل فاصلة .. في كل رشة حبر يتركها أديب على الورق . "
الشاعر/ نزار قباني .
وصلت إلى مركز " فلسطين الطبي " فور إبلاغي بما حدث
وقفت أشاهدها من خلف الباب الزجاجي لحجرة العناية
المركزة ، جسدها ممدد فوق السرير ، أسلاك وخراطيم كثيرة من البلاستيك خارجة وداخلة إلى جسدها الهزيل ،
بابا عينيها قد أغلقا تماماً ، هاتان العينان الخضراوان
كلون الزيتون بعد جمعه.
هاتان العينان اللتان لم تُغلقا من قبل قط ، حتى عندما يغلبهما سلطان النوم دون إرادتهما، أراهما مفتوحتين على اتساعهما، وكثيراً ما طلبت منها في رجاء أن تريح تروس عقلها المتحرك دائماً ، وأن تنام نوماً عميقاً _ فجسدها قد صار هزيلاً ، بعد أن ذاب جمالها ، حتى إنني في بعض الأحيان أشعر أنى قد أنجبت ولداً ، لقد أشعرتني بحقيقة هذا الأمر، بعد أن اختفت معالم أنوثتها تماماً _ تبتسم في

وجهي كعادتها قبل أن تجيبني عن أي سؤال ، راحت تقول وهى عاقدة يدها خلف ظهرها، تجوب حجرة نومها :
(أبى .. كيف تطلب منى أن آخذ نصيبي كاملاً من النوم والقدس أسير ..؟!!)
لم أجد بديلاً ، أغلق عليها باب حجرتها ، وأتركها وحيدة فكرها ، فقد اقترب موعد صلاة الفَجر .
وعند عودتها من مدرستها (القدس الأبية) تجدني أجلس في انتظارها بعد أن انتهيت من إعداد وجبة الغداء ، تقبلني قبلات، اثنتين على خدي ، ومثلهما على يدي اليمنى ، تضع كراريسها التي احتضنتها طيلة ذهابها وعودتها من المدرسة ، في سعادة راحت تفرغ جيوبها المثقلة بالأحجار ، تلك الأحجار التي استطاعت جمعها وهى في طريق عودتها من المدرسة ، أجد السعادة كل السعادة متوثبة على خديها ، وهى تحدق في وجوه الأحجار القابعة من حواليها ، تمسك حجرين تضربهما في بعضيهما ضربتين قويتين، على الفور تخرج من جوفيهما حصوات صغيرة قد ولدت لتوها، تمسك الحصوات حديثة الولادة ، الواحدة تلو الأخرى، وكأفضل صانع أجدها تمرر المقدمة فوق حجر من الجرانيت الصلب، حتى تخرج مقدمة الحصوات في النهاية مدببة كحد السكين ، ثم تحدثها في تمنٍّ من وقت لآخر :
(أحبابي.. جنودي الأبطال البواسل ، عندما تخرجون من (نبلتي) أرجوكم أن تصيبوا هدفكم تماماً مثل كل المرات السابقات ، اخرجوا لتدخلوا في رؤوس أو أعين أعدائنا ، فإذا كنا لا نملك طلقات

الرصاص التي نضعها داخل الأسلحة ، فإننا قادرون بأمر الله أن نصنع من الأحجار طلقات رصاص فتاكة، تصيب أعداءنا في مقتل ، أليس كذلك أيها الأبطال ..؟!!)

كثيراً ما حاولت أن أمنعها من الخروج ، بعد أن أغلق الأبواب والنوافذ ، ورغم أنها لم ولن ترفض لي مطلباً ، ورغم أنى أنا الذي أغلقت كل مخارج ومداخل دارنا ، إلا أنني أقوم بفتحها كما أغلقتها ، بعد أن أرى دموعها وهى تتساقط سريعة ملتهبة على خديها وهى ترجوني :

(هذه البلد لها حق علينا ، وما أفعله تجاهها واجب ، بل أقل بكثير من كلمة واجب)

أصرخ في وجهها :

(ولكني أخشى عليكِ من أن يخطفكِ الموت ، وأنتِ صغيرة صغيرة يا ابنتي على الموت و .....)

تضع أصابعها الصغيرة _ التي تآكلت هي الأخرى كأحجارها _ على فمي وهى تقول :

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)

أخجل من نفسي ، ومن قوة إيمانها ووطنيتها ، على الفور أجدني أهرب منها ، ومن ضعفي ، وقلة حيلتي بفتح الأبواب على مصاريعها ..

(لا إله إلا الله)

تقولها وهى خارجة في همة ونشاط ..

أرد عليها وقلبي ينزف ألماً وخوفاً :

(محمد رسول الله)

أمسك بالمصحف الشريف بين يدي ، منذ اللحظات الأولى لخروجها ، أقرأ ما تيسر لي من القرآن الكريم ، كي تهدأ أنفاسي وخوفي ، الشيطان الرجيم ظل متربصاً بي حتى أوقعني فريسة سهلة ، أغلقت المصحف بعد أن تأكد لي أن لساني يردد الآيات فقط دون وعى أو إدراك

رحت أجوب المكان عاقداً يدي خلف ظهري ..

توتري وخوفي الشديدان عليها جعلاني أشعل سجائري من وقت لآخر ، مستعيناً بأكواب من الشاي والقهوة لعلها تهدئ من روعي وقلقي اللذين جعلاني لقمة سهلة مضغها، تماماً مثل كل الليالي السابقة ..

وجدتني أقف لأحدث صورة (وطنية) زوجتي رحمها الله

- أرأيتِ يا وطنية ما تفعله معي ابنتنا ، لها رأس من حديد ، مثلك تماماً ، لم تترك منكِ شيئاً ، سبحان الله العظيم في خلقه، وكأنكما كما يقول المثل :

(فولة وانقسمت لنصفين)

ترى هل تفلح رصاصات الأعداء في إصابتها هذه المرة ، حتى تكون جليستك في قبرك ..؟!!

ترى هل ستكتب الأيام على باب بيتي أن أعيش بقية عمري وحيداً ..؟!! لا زوجة ولا أولاد ..

تطمئنني ابتسامة زوجتي الصافية كاللبن الحليب ، أتركها وأفتح كل النوافذ التي تطل على شوارع المدينة ، أترقب قدومها في لهفة ..

ظنون .. احتمالات .. خوف .. قلق ..

خيول عربية جامحة راحت تتحرك بشدة داخل صحراء رأسي، لا تهدأ ، ولا يهدأ لي بال إلا عندما أراها أمامي ، يتساقط عرقها الذي كاد أن

يغسلها لكثرته ، وقلبها الذي كاد أن يخرج من مكانه من جراء هروبها المتواصل بعد تنفيذ مخططها اليومي ، أغلق ما فتحته من أبواب وشبابيك ، أدخلها في حضن حضني ، تقبل يدي ، أقبل رأسها وأنا أتمتم بحمد الله وشكره لعودتها سالمة ،

مبتسمة تقول _ كما قالت من قبل _ وهى تلهث :

(لقد وفقني الله عز وجل في إصابة الكثير من جنود الاحتلال ، لقد جعلتهم يلعنون يوم مولدهم ، لقد جعلتهم يصرخون دمعاً وألماً ، ويشهد على ذلك ربى ، وعلم فلسطين المصغر الذي أجفف به عرقي من وقت لآخر ، وبعض الشباب الأحرار الأوفياء لتراب هذا الوطن)

ورغم خوفي الدائم عليها إلا أنني سعيد وفخور بأن هذه ابنتي، لا .. بل ابنة هذا الوطن .

ورغم انشغالها الدائم طيلة النهار في صنع رصاصها الحجري ، وممارسة نشاطها القتالي كل ليلة ، إلا أنها متفوقة دراسياً ، بل الأكثر من هذا أنها الأولى على مدرستها كل عام ، كيف يحدث ذلك ...؟!! لا أدرى .

- شد حيلك ..

قالها الطبيب ، بعد أن وضع يده على ظهري ، قلت والدموع _ المخبأة داخل عيني طيلة الأيام الماضية _ تغسل وجهي الآن :

- أخبرني عن حالتها ..

قال وأهداب عينيه تتجه مكان وقوفه :

- جاءتنا ابنتك غارقة في بحر دمائها ، أخرجنا من جسدها ما تيسر لنا إخراجه من طلقات رصاص ، اخترقت جسدها الواهن ، لك أن تتخيل أننا أخرجنا ما يقرب من إحدى عشرة طلقة ، ولم تتبق غير

اثنتين .. اثنتين فقط يصعب علينا إخراجهما ؛ لأنهما ملتصقتان تماماً بالقلب ..

الصمت القاتل راح يلفنا ..

خوفه الشديد علىَّ ، جعل الطبيب يتوقف عن حديثه ، سألته وأنا أعرف الإجابة جيداً :

- ماذا تريد أن تقول أيها الطبيب ..؟!!

رفع رأسه ..

راح يحدق فيها من خلف الزجاج ، ثم التفت ناحيتي ، وراح يقول في أسى وحزن دفين :

- أقولها لك بكل صراحة ، حتى تدبر أحوالك ، عليك أن تحتسب ابنتك عند الله و.....

قاطعته بقولي :

- ماتت ....

- لا .. ولكنها في طريقها للموت .. نعم في طريقها للموت لا محالة ..

- ألهذا الحد قد عجز الطب والأطباء عن إنقاذها من الموت المحقق

- لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا لإنقاذها، لا تضيع وقتك ، اذهب وأقم لها مراسم تشييع جثمانها ، فما بين اللحظة والأخرى ننتظر خروج روحها إلى بارئها جلَّ جلاله ..

سألته في عجز:

- أليس هناك من سبيل لإنقاذها ..؟!

رد في أسى وانكسار :

- لا .. لقد أوشكت النهاية

- أو حتى بصيص أمل ..؟!
- صدقني إذا قلت لك إننا جميعاً نعيش على الأمل ، وبدون أمل مؤكد سوف نموت في بطء شديد ، اجعل أملك في الله أوله وآخره ..
صمت برهة ، ثم عاد يقول بعد أن وضع يده فوق كتفي :
- اعلم جيداً أن ابنتك شهيدة .. نعم شهيدة الوطن ..
ثم قال بعد أن مسح دموعه المتساقطة :
- بسم الله الرحمن الرحيم (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون) صدق الله العظيم .. لا تحزن لموت ابنتك ، بل ادعُ لها بالرحمة والمغفرة ، وادعُ لنا أن نموت في سبيل الوطن .
- إنا لله وإنا إليه راجعون .. إنا لله وإنا إليه راجعون ،
رحت أرددها في همس وأنا في طريقي للخروج ..
- انتظر من فضلك ..
توقفت، ألتفت خلفي فوجدته نفس الطبيب، أقبل نحوى وهو ما زال يمسح دموعه ، ثم قال في فخر :
- خذ هذه الأشياء وجدناها داخل جيوب ابنتك ، مصحف صغير ، وعلم فلسطين ، وهذه النبلة .
تركني وأسرع بالفرار من أمامي، قبل أن ينهار باكياً، فردت العلم ووضعت بداخله المصحف والنبلة، ثم ألقيت عليها نظرة الوداع وانصرفت؛ لأقيم مراسم تشييع الجثمان والعزاء.

– 2 -

فور وصولي إلى البيت ، أمسكت سماعة الهاتف وأسرعت _ وقلبي يتمزق ألماً لفراقها _ بإخبار الأهل والأقارب والأصدقاء ، الذين حضروا مسرعين فور سماعهم النبأ الأليم .

–3 -

وطأت أقدامنا _ أنا ومن أراد مرافقتي _ الباب الرئيسي لمركز " فلسطين الطبي ".. وقفت أمام موظف الاستقبال ، وكلما هممت بأن أتحدث للموظف باسمها ، وأننا جئنا لنتسلمها جثة هامدة ، وجدتني أتراجع .. تقف الكلمات في حلقي ، حتى وجدتني أنخرط باكياً ، أسرع أحد الأصدقاء وضمني إلى صدره ، ورحنا نبكى سوياً ، وتقدم آخر من خلفنا وراح يملى على الموظف بيانات ابنتي ..

- هذا الاسم ليس موجوداً في الكشف ..

قالها موظف الاستقبال ، ورحنا نحدق فيه جميعاً ، وجدتني أسأل نفسي في صمت :

- إذا لم يكن اسم ابنتنا في الكشف .. إذن أين ذهبوا بها..؟!! أين ابنتي ..؟!! أتكون أيادي الأعداء قد وصلت إلى هنا لخطفها انتقاما لما فعلته معهم ..؟! أسرعت إلى الموظف ، انتشلت من بين يديه الدفتر ، ورحت أبحث عن اسم ابنتي بنفسي، لأكتشف عدم وجوده ، عدت أبحث عنه مرة ثانية وثالثة وعاشرة ، وعندما فشلت توجهت بسؤالي للموظف الذي راح يحدق في وجهي:

- إذا لم يدون اسم ابنتي في كشف الأموات.. فأين هي إذن..؟! أرجوك أجبني لا تتركني هكذا ..؟!!

سألني بدوره :

- متى رأيتها آخر مرة ..؟!!

قلت وأنا أكاد أموت غيظاً منه ومن سؤاله :

- رأيتها صباح اليوم ، وهى ما زالت داخل حجرة العناية المركزة ..

طفت على صفحات وجه موظف الاستقبال ابتسامة طفيفة، ثم قال :

- اذهب سوف تجدها كما تركتها ..

أسرعنا ، فوجدناها ممددة على سريرها ، الابتسامة تملأ وجهها ، وعيناها الخضراوان تضيئان الحجرة ، جلسنا نتأملها من خلف الزجاج لساعات طويلة ، ونحن ندعو لها إما بالشفاء أو .....

طالبت الأهل والأصدقاء والجيران الذين حضروا معي أن يذهبوا ؛ حتى يدبروا حاجاتهم ؛ ويرعوا مصالحهم التي عطلت ، امتنعوا جميعاً في بادئ الأمر ، ولكنهم استجابوا لي بعد ذلك .

-4-

صارت ابنتي حديث العالم بأسره ..

وراحت الصحف والمجلات العربية والعالمية تفرد صفحاتها الأولى لأخبارها وصورها ..

صارت أخبارها وصورها تُبَثُّ كل يوم عبر الأقمار العربية والأوربية ، بل إن عميد كلية الطب صار يصطحب طلابه كل يوم ، ويشرح لهم

حالة ابنتي التي من المفترض أن تكون قد فارقت الحياة منذ شهور طويلة مضت ، على حد قوله ، وقول الأطباء من قبله ..
بل الأغرب من هذا أن هناك رسائل دكتوراه تناقش الآن في جامعاتنا العربية عن صلابة وقوة ابنتي ، ورفض جسدها الاستسلام للموت ، شهوراً طويلة .. طويلة مضت لا أعرف عددها لكثرتها، وأنا قابع هنا أمام حجرتها أشاهد ابنتي (زهرة المدائن) وهى تصارع الموت كل لحظة بسلاح الأمل.